الحفر بأظفار الجهد ... في جبالٍ من الثلجَ!

أو: عن المرأة المسلمة وسؤال العلم والثقافة في مجتمع السوق

دعاء توفيق(*)

«سبحان من شغل كل شخص بفنٍّ، لتنام العيون».

[ابن الجوزي: «صيد الخاطر»]

لم أكن قد جاوزتُ السابعة عشرة من عمري، حين كانت قراءتي الأولىٰ للكتاب الفذ: صيد الخاطر، الذي أبدعته قريحة الإمام أبي الفرج

(*) بكالوريوس تجارة، جامعة عين شمس، قسم إدارة الأعمال.
طالبة في كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
كاتبة وباحثة مهتمة بالمجالات الفكرية، واللغوية، والتربوية، وواقع المرأة المسلمة.

ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وقد رُزقتُ منذ نعومة أظفاري، شغف المعرفة، ومحبة العلوم والآداب على اختلافها، لا سيما العلوم الشرعية.

وفي الحقيقة، فإنني قد تأثرت بهذا السفر الجليل تأثرًا بالغًا، ولم أستطع أن أتجاوز الحالة الشعورية التي طبعها علىٰ نفسي مذ قراءتي الأولىٰ له؛ لا لجميل مواعظه وبليغها فحسب، ولا لغزارة عقل مؤلفه وحكمته فحسب؛ وإنما لفاقةٍ غلبت علىٰ نفسي آنذاك.

نعم .. إنها فاقةُ الاقتداء! والعطش الشديد لامرأةٍ عالِمة بليغة، تستشعر ما يلاقينه بنات جنسها في حياتهن من عوائق، وتسطر لهن نصائح ذهبية كنصائح الإمام.

كم تمنيت لو أن محدِّثة أو عالمة من العصور الغابرة، قد سطرت ما تلاقيه في حياتها العلمية والعملية من تجارب وعوائق، وتتحدث عنها وتنصح مثيلاتها من النساء المشتغلات بالمجال العلمي (الشرعي) نفسه، الذي يعاني من قلة الإقبال النسائي عليه، مقارنةً بغيره من المجالات الأخرىٰ.

وكما لا يخفىٰ، فإن طبيعة الوظيفة الحياتية المنوطة بالمرأة تختلف عن تلك المنوطة بالرجل؛ فإن المرأة ليست مُخاطبة بالأساس بتحصيل المال وإعالة غيرها، وإنما هي مُخاطبة أصلًا بحسن معاملة الزوج وحسن التبعل له، وتربية الأولاد ورعايتهم، وتدبير المعاش، ومواساة الأهل والأقارب والجيران والإحسان إليهم.

وبالتالي، فإن طبيعة العوائق التي تلاقيها المرأة المُشتغلة بالمجالات العلمية، في حياتها العملية؛ تختلف عن تلك التي يلاقيها الرجل، ونستطيع أن نصنفها -في الغالب-علىٰ أنها عوائق اجتماعية، بخلاف الرجل الذي نستطيع أن نصنف العوائق التي يلاقيها -غالبًا- علىٰ أنها عوائق مادية.

وكلاهما -العوائق المادية والاجتماعية- له الأثر الأكبر في تفرغ المشتغلين بالمجالات الشرعية والثقافية، رجالًا ونساءً؛ وهذه معضلةٌ إنسانيّة أصيلة، يعانيها كل صاحب رسالة وهمّةٍ وطموح؛ لأن الموارد -وعلىٰ رأسها

الأوقات- شديدة المحدودية، وأدوار الحياة مرسومة في قوالب أشبه بالسجون منها إلىٰ الحريّة، في حين أن المطلوبات في مجتمع السوق والانفتاح الفكريّ الهائل الذي نحياه، لا سقف لها يلوحُ في الآفاق، ولو تطاولت الأنظار. وعلىٰ مدار التاريخ، نجد نصائح لكثير من أهل العلم والأدب -الرجال- لطلابهم وقارئيهم، وأبنائهم كذلك، في تحصيل المال، ومعاملة الزوجة وسياستها، وعن الناس وطبائعهم، وأفضل طرق الاستذكار وتنظيم الأوقات، وما إلىٰ ذلك من خلاصات لخبراتهم وتجاربهم في الحياة، ولم يزل هذا الطريق مُعبّدًا مأهولًا، والكتب المعنية بنصائح العلماء وخبراتهم في شتىٰ أمور الحياة متوفرة، وإن كانت تحتاج إلىٰ مواكبة أكثر لظروف الحياة المعاصرة وحاجاتها.

بينما ينعدم هذا الأمر في الشق النسائي(١)، ولعله لأسباب كثيرة، ربما كُن النساء لا يرين ثمة جدوىٰ من تسجيل ذلك للأجيال القادمة، وربما غلب التلقي الشفاهي علىٰ الكتابي آنذاك في أوساط النساء؛ وأيًا كان السبب، فلم

(١) أكثر ما ذُكر من الكتب النسائية الخاصة بالآداب والحث علىٰ التعليم، إنما كان من التراث الهنديّ المسلم، وقد ذكرت المستشرقة آنا ماري شمل، عدّة مؤلفات لنساء مسلمات هنديات، مثل: دراسة أميرة بهوبال شاهجهان بيغم (١٨٣٨-١٩٠١) التي كتبت في الثلث الثاني للقرن التاسع عشر بعنوان: تهذيب النسوان وتربية الإنسان؛ وأعمال دبوتي ناظير أحمد (١٨٠٣- ١٩١٢)، صاحبة كتاب (مرآة العروس)، التي تصور البطلة المتعلمة المجتهدة تقوم بأعمال خيرية مثل إرسال الأغطية إلىٰ الفقراء في الشتاء، ونراها في مناسبات أخرىٰ توزع المصاحف. وترسم رواية (زينات) لمرزا قالش بج (١٨٥٣-١٩٢٩)، الصادرة في عام (١٨٩٢)، كيف تتصرف المرأة الدارسة في العلوم الكلاسيكية في كل المواقف بحنكة ولياقة. [«روحي أنثىٰ»، آنا ماري شمل، (ص/ ٢٢، ٢٣) بتصرف].
وكذلك والدة الداعية الكبير السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، خير النساء بهتر (١٨٧٨- ١٩٦٨)، التي قامت بتأليف كتاب: «رسائل للشيخ أبي الحسن الندوي»، وهي الرسائل التي كانت تكتبها لابنها الشيخ أبي الحسن عندما كان مقيمًا في لكناو، ونجد في هذه الرسائل نصيحتها لابنها بتحصيل العلم العربي ودراسة الكتب الدينيّة واختيار طريقة السلف الصالح. [«مساهمة الهنديات في الدراسات العربية»، د.هيفاء شاكري، مقالات الألوكة].

يصلنا من ذلك شيء، اللهم إلا بعض النصوص الأدبية التي وصلتنا من التراث عن بعض النصائح والخبرات الاجتماعية في معاملة الزوج.

وما أجمل تدبر الإمام ابن الجوزي، وما ألطفه وأدقه!

«سبحان من شغل كل شخصٍ بفن؛ لتنام العيون».

فعندما ابتعدت المرأة المسلمة الحصيفة عن الاشتغال الجاد بالمجالات الشرعية والثقافية، عندما فرغ مكانها وتجمدت آثارها عند حقبة معينة من الزمان، ومع الانفتاح الهائل للحياة المعاصرة، وسيولة المعرفة وسُبُلها؛ أصبح كثيرٌ من النساء في حيرة شديدة، وفي حالةٍ من التيه، بين عالمٍ مفتوح يستغل الطاقات النسائية بصورة متنامية ومتزايدة مع الوقت، بشتىٰ الصور، سواء السلبية منها أو الإيجابيّة، وبين خطابٍ يحصرها في دائرة البيت والأولاد، وبعض المجالات كالطب والتدريس مثلًا لشدة الحاجة الاجتماعيّة إليهما في الجانب النسائي، وعندما يأتي الحديث عن دورها في العلم والثقافة -علىٰ قلة الفئة النسائية المشتغلة بهذا أصلًا- تُختلق المعوّقات والتصورات الفاسدة والافتراضات المُهلكة.

فعندما نتحدث عن قضايا المرأة المشتغلة بالعلم الشرعي والمجالات الثقافية والفكرية تحديدًا، فإننا نواجه إشكالات كثيرة؛ وليست هذه الإشكالات في معرض الرد علىٰ (الآخر)، الذي من المفترض أنه يحمل أيديولوجيا مناهضة للنسق الإسلامي مثلًا، وإنما هي في قلب المشتغلين بالعلم الشرعي والثقافة بالأساس، وفي داخل الأجواء الإسلامية. لذا: فسوف نصف هذا السؤال بأنه: سؤالٌ داخلي وليس خارجيًا، ومن هنا يستمد أهميته؛ لتعلقه بواقعنا العلمي والفكري، الذي من الواجب علينا أن نشتغل بإصلاحه. إن الحداثة الغربية التي توطنت في قلب مجتمعاتنا العربية والإسلامية وأحشائها، وآلاتها الإعلامية الضخمة، وأذرعها الفكرية والاجتماعية؛ إنما هي تسوّق في الأساس لصورة المرأة الغارقة في الاستهلاك، بأنواعه المختلفة، أو بكونها هي نفسها سلعة، أو بكونها عاملًا رأسماليًا يساهم في مجال الأعمال وإدرار

الأموال؛ وليست مطروحة أصلًا صورة المرأة المشتغلة بالعلم أو الفكر؛ خصوصًا العلم الشرعي(١)، بل إن الصورة السائدة عن النساء طالبات العلم أو المثقفات، أنهن لسن علىٰ القدر المطلوب لا من الأنوثة ولا من العقل -كليهما!-، بل ويستدل القائل بهذا بالأمثلة والنماذج السيئة التي لا تخلو منها طبقة من طبقات الناس -بما فيهم طبقة طالبات العلم-؛ وحتىٰ يُشنِّع علىٰ كل الأفراد الذين تشملهم هذه الفئة. إضافة إلىٰ الانطباعات، والذائقة الفردانية والشخصية، التي يتم من خلالها إطلاق الأحكام علىٰ سائر النساء في المجال العلمي والثقافي وتعميمها. الأمر يشبه إلىٰ حدٍ بعيد، ما تحدّث عنه أستاذنا د. أحمد قوشتي، في رسالةٍ مهمة علىٰ وجازتها(٢)، عن أثر الخصائص الشخصية في ظهور الاتجاهات الفكرية؛ فعلىٰ الرغم من أن هذه الرسالة تتحدث عن بعض عوامل انتشار المذاهب الكلامية في مصر، وتركّز تحديدًا علىٰ عامل (الصفات الشخصيّة) ودورها في ذلك؛ فإننا لو طبقنا القاعدة نفسها علىٰ انتشار فكرة معينة عن موضوع معين، سنجد أن عامل (الصفات الشخصية) من أهم العوامل، لا سيما في عالمٍ يعزّز الفردانيّة والمزاجيّة، ويجعل الإنسان وأفكاره ورغباته وصفاته هو المركز الذي تدور مع رحاه قضايا الكوْن. ولو تمثلنا أفكار قطاعٍ عريض من الرجال والنساء علىٰ مواقع التواصل مثلًا، في داخل التيارات الإسلامية بشكلٍ خاص، سنجد أن كثيرًا من الأحكام والتصوّرات التي يتم إطلاقها علىٰ المرأة العالِمة مثلًا أو الباحثة والمثقفة، تنطلق أساسًا من نزوعٍ طبعيّ في الرجل، أو في المرأة المناهضة لهذه المسألة، لا من منطلقٍ شرعيّ؛ إذ لو كانت مفاهيم الشريعة هي الحَكَم لانتهىٰ الأمر بسهولةٍ ويُسْرٍ، لوضوحها وبتِّها في هذه المسألة وتحديد الأولويات والضوابط؛ فمثلًا، لا يروق فُلانًا أن يرىٰ امرأة تُناقش وتُسأَل وتتعلم، ويكون

---

(١) لأنَّ من أهم ركائز الحداثة الجليّة بالأساس، هي القطيعة مع التراث، وتجاوزه.

(٢) «**أثر الخصائص الشخصية علىٰ ظهور الاتجاهات الفكرية: مصر نموذجًا**»، د.أحمد قوشتي عبد الرحيم، ط. مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

لها رأيٌ ونظر وتخرج إلىٰ حلقات العلم، بل لا يرىٰ في المرأة إلا دورها الاجتماعيّ ورعايتها لزوجها وأولادها وبيتها، ولا يرىٰ إلا أن تكون خالية البال من تعقيدات الحياة ومشكلاتها(١)، ويجتزئ لرؤيته تلك من النصوص الشرعية -والأدبية كذلك- التي تدعم هذا المعنىٰ فقط. وهذا في ذاته لا يمثل أي مشكلة إذا ما تناوله في إطاره الشخصيّ، لكن المشكلة تحدث عندما يُطلق هذا (المزاج)، أو(الذوق)، أو (الطبع) الشخصي علىٰ الموضوع بأكمله، وتشتد الأزمة إذا ماكان هذا الرجل شيخًا أو عالِمًا أو طالب علم؛ إذ تنزل رؤيته عند الناس منزلة الحقائق، وإنما كل ذلك محض اختيارات شخصية، يتم من خلالها الحكم بما يشبه ازدراء طالبة العلم أو تصنيفها بالقساوة والجمود.

وليس يستوي، لا عقلًا ولا شرعًا، أن نستدل بأمثلة سيئة من طلاب العلم الذين يُسيئون لزوجاتهم أو لأهليهم أو لهم أي سقطات أخلاقية، لنستنتج نهاية أن طلاب العلم جميعهم ليسوا أسوياء! أو أن امرأة لا تفضل أن ينشغل عنها زوجها بقراءة أو كتاب، فتقلل من شأن طلاب العلم أو ترميهم بالجمود كذلك. لكن هذا هو عين ما يحدث إذا تحدثنا عن المرأة في سياق طلب العلم أو الثقافة، في الغالب.

ومن العجيب أن هذه الصورة الشائهة عن المرأة المشتغلة بالعلم والثقافة، هي تلك الصورة التي رسمتها الفلسفة الغربية بالأساس، وتنافي الصورة التي رسمتها النصوص الإسلامية عن المرأة. فإن الأروقة العلمية والفلسفية التي قامت علىٰ معطياتها الحضارة الغربية، لا تعترف بالمرأة العالِمة أو المفكرة، ويرونها عاجزة عن إعمال العقل والحكمة والتفكر، في أصل خلقتها، إلا إذا دخلت في شرطهم الذكوري، ومارست العلم والفكر كما يمارسه الرجال، وفي انعزالٍ عن الناس وإهمالٍ للنفس، وصرامة وبُعْدٍ عن

(١) تعبر عالِمة الكيمياء الحيوية (ليندا شيفرد) في كتابها (أنثوية العلم) عن ذلك قائلة: «وهكذا يتحقق الضرر باسم النوايا الطيبة، من قبيل حماية المرأة من مشاق التعليم». [«**من أجل صالحها**»، (ص/ ٧٠)].

الأحاسيس والمشاعر القلبية؛ لذلك وصفوها بالذكورة والخشونة، وأعلوا من شأن المرأة التي لا تهتم إلا بجسدها وجمالها، وتطيع وتسمع بلا رأي ولا مشورة.

وفي ذلك تقول ليندا جين شيفرد -عالمة الكيمياء الحيوية- في كتابها الرائد: أنثوية العلم: «هل يجب علىٰ النساء أن يفكرن كالرجال ويصبحن مثل الرجال لكي ينجحن في العلم؟»[(١)].

وتقول: «قال آي آي رابي الحاصل علىٰ جائزة نوبل في الفيزياء: إن المرأة غير مهيأة للعلم قد تشق المرأة طريقها في العلم، قد تُنجز قدرًا طيبًا، لكنها لن تنجز أبدًا علمًا عظيمًا»[(٢)].

وإذا كان ما أوردته ليندا شيفرد في كتابها يخص العلوم التجريبية بالأساس، فإن هذا التصور يتم تطبيقه أيضًا علىٰ مختلف العلوم الأخرىٰ، لا سيما تلك العلوم التي تستغرق الذهن وتحتاج مدة طويلة لتحصيلها، مثل العلوم الشرعية.

وهذا يعني أننا ما زلنا حبيسي التصور نفسه الذي كان يسود الغرب إلىٰ حقبة الستينيات!

ومفارقة التصور الإسلامي لهذه التصورات الغربيّة بالأساس، واضحة كالشمس، لا مراء فيها. ومن أحسن وأفضل من تناول هذه القضية -أي: التصور الإسلامي للمرأة-، الباحثة الأردنية رزان عبده الحكيم، في بحثها الرائق: صورة المرأة في الحديث النبوي[(٣)]، إذ خَلُصت نهايةً -عبر تقديمها لمجموعة من كلٍ من بعض الأحاديث الصحيحة وشروحاتها، والأحاديث المردودة، عن المرأة، وعبر تقديمها لبعض الكتب الأدبية المشهورة التي

(١) «**أنثوية العلم**»، ليندا جين شيفرد، ت. د. يمنىٰ طريف الخولي، ط. عالم المعرفة-الكويت، (ص/ ٦٠).

(٢) السابق، (ص/ ٧١).

(٣) «**صورة المرأة في الحديث النبوي**»، رزان عبد الحكيم، ط. دار الفكر- دمشق.

ساهمت كذلك في تشويه التصور الإسلامي للمرأة، من خلال الاستشهاد بالأحاديث المردودة تارّة، أو من خلال الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة، واجتزاء هذه الأحاديث من مجمل النصوص الواردة عن المرأة المسلمة، وخلطها بالأحاديث المردودة- خلصت إلىٰ أن «الحديث الصحيح كان يدفع المرأة إلىٰ المشاركة الفعّالة في الحياة العامة؛ والحديث المردود يعزلها عنها»[١].

تقول: «أين إيمان خديجة، وعلم عائشة، ومشورة أم سَلَمة، وفدائية أم سُليْم وأسماء، ونفقة زينب وورعها، وطموح أم حرام، وشهادة سُميّة، وهجرة أم كلثوم؟»[٢]. وكذلك، عقدت المستشرقة روث رودد، في كتابها المهم: النساء في التراجم الإسلامية[٣]، «دراسة طويلة ومُضنية لتراجم النساء من أجل رصد الانطباع الذهني عن النساء في المجتمع الإسلامي، علىٰ مدار القرون السبعة الأولىٰ»[٤].

«وصلت الدكتورة روث رودد إلىٰ أن أي امرأة شكّلت أهميةً تكفي لتسويغ تدوين ترجمتها في مجموعات التراجم الإسلامية القديمة»[٥].

تقول رودد: «يُذهل المرء من اجتهاد العلماء المسلمين في جمع تفاصيل تراجم النساء ومناقشتها في بعض الأحيان، وأما في ما يتعلق بالعودة إلىٰ مصادر أخرىٰ -القرآن، والحديث، والجوامع الفقهية والتاريخ- فلا يوجد دليل علىٰ إهمال النساء في هذا الجانب.

فإذا ما كان المؤرخون الأمريكيون والأوربيون يشعرون بالحاجة إلىٰ إعادة بناء تاريخ النساء لأنهن غير ظاهرات في المراجع التقليدية، فإن العلماء

---

(١) السابق، ص ٣٢٨.

(٢) السابق، ص ٣٢٣.

(٣) «**النساء في التراجم الإسلامية**»، رودث رودد، ت. عبد الله بن إبراهيم العسكر، ط. دار جداول.

(٤) السابق، ص ١٢.

(٥) السابق، ص ٣١.

المسلمين يواجهون وفرة من مواد المصادر .. ومعظم هذه المراجع، إن لم يكن جميعها، قد كتبها رجال».

وتقول: «ويُدهش المرء حين قراءته لآلاف تراجم النساء، بالدليل الذي يتناقض مع مشاهدة النساء المُسلمات مُهمّشات، ومنعزلات».

«ففي أوروبا العصور الوُسطىٰ، كان لا يمكن تصوُّر أي وضع للمرأة خارج الزواج وإنجاب الأطفال وتربيتهم وأعمال المنزل، ولعل هذا الوضع الاجتماعي والثقافي القاسي المُتصلِّب قد دفع النساء في أوروبا إلىٰ اللجوء إلىٰ الدير، أي إلىٰ الرهبنة، فيُذكر علىٰ سبيل المثال كيف كانت القراءة والكتابة قاصرةً علىٰ التعلُّم في الدير وبعض العائلات الثّرية، وكيف خاضت الراهبات المسيحيات حروبًا نفسية ضارية، سواء ضد المجتمع أو ضد المؤسسة الدينية المتمثّلة في الكنيسة، لتغيير أوضاع المرأة في مُجتمعها»(١).

أما في الإسلام، فإن الاشتغال العلمي الديني للنساء (باعتباره نظيرًا للاشتغال اللاهوتي عند الراهبات) لم يكن أبدًا هروبًا من المسؤوليات وضغوط الحياة، كما فعلت الغربيات مع الرهبنة والتدريس، بل إنه اتساقٌ مع الرؤية الكونيّة المنبثقة عن العقيدة الإسلاميّة، ففي الإسلام أن العلم عبادةٌ جليلة، وشرفٌ عظيم، وارتقاء بالمجتمع المُسلم.

ولولا ضيق المقام هنا، لأسهبتُ في بيان هذه المفارقة العميقة بين الرؤيتين الإسلاميّة والغربية، للاشتغال العلمي للنساء، لا سيما أن أغلب الكتابات التي تتناول موضوع التصور الإسلامي للمرأة، تكتفي بنقل النصوص والتراجم، من دون معالجتها لقضايا الواقع المعاصر الذي نحياه، وطبيعة العوائق التي وُلدت في سياق هذا الواقع.

وإذا ما انتقلنا من مشكلة التصوّر لدور المرأة المسلمة في المجال العلمي والثقافي، إلىٰ طبيعة الخطاب الوعظي والدّعَوي الموجه إلىٰ النساء،

---

(١) «**روحي أنثىٰ**»، (الأنوثة في الإسلام)، آنا ماري شمل، ت. لميس فايد، ط. الكتب خان، (ص/٨).

سنكتشف أنه -للأسف- يعزز كثيرًا من المفاهيم والتصورات المغلوطة عن المرأة، سواء بقصد أو بغير قصد.

فدعوىٰ الذكورة والخشونة الملازمة للعلم، التي تحدثنا عنها، تتكرر كثيرًا في أدبيات كثير من المشايخ وطلبة العلم من الرجال، بل ومن النساء كذلك؛ إذ ترىٰ أن انشغالها بالقضايا العلمية أو الفكرية، هو ضربٌ من الاشتغال بما لا ينفع، وضرب من مخالفة مقتضيات الأنوثة والعاطفة وما يستتبعهما من اهتمامات.

وكذلك، حصر خطاب المرأة علىٰ أنها فتنة، وتضخيم هذا المعنىٰ، في إطار أكبر بكثير من الإطار الذي حدده الشارع، وبصورةٍ تعزز -لو تدبرنا- المفهومَ الغربي المادي نفسه بأن المرأة محض جسد فقط لا غير.

فلماذا لا يتم وضع مفهوم الفتنة في إطاره، مع تأكيد دور الحجاب الشرعيّ والآداب الإسلامية، وبالتالي تستطيع المرأة التعاطي مع مجتمعها في المساحات التي أفسحها الله تعالىٰ لها، وأباحها.

«فالمرأة من الشهوات ومن متع الدنيا التي قد يُفتن الرجل بها، ولكنها ليست شهوته الوحيدة، وإن كانت أولىٰ الشهوات وأحبها إليه، وعندما يُنبه البيان النبوي إلىٰ ذلك، لا يجعلها مانعًا من الوصولِ إلىٰ الله إلا إن فُتن بها الرجل وانجرف وراء شهوته، فقال عندها: إنها تضرّه، ولم يقل تمنع وصوله إلىٰ الله أو تمنع دخوله الجنة، والنبي ﷺ لا يُحمّل المرأة المسؤولية؛ ذلك لأنه مما فُطر عليه كلٌ من الجنسين»[(١)].

وعلىٰ هامش قضية الفتنة، أتأمل كثيرًا في مساحة، ربما لا أبالغ إن قُلتُ إنه لا أحد يهتم بالحديث عنها -في خطابنا الدعوي والفكري- وبيانها، وطرح سؤالاتها، والبحث عن إجابات . .

---

(١) «صورة المرأة في الحديث النبوي»، (ص/ ٣١٤).

ألا وهي: دور المرأة المسلمة الرائد حال تقدمها وكبرها في السن. فالخطاب المطروح في منتدياتنا الفكرية والدعوية، يركز في طرح قضية المرأة علىٰ نَسَقٍ واحد ومرحلة عمرية واحدة: ألا وهي مرحلة الشباب وبداية الزواج، وعدم تناول دور المرأة المجتمعي شديد الأهمية حال كبرها في السن، بعد نضوج أولادها أو زواجهم، واستقرار أمورها الحياتية بعد فترة كبيرة من الزواج، وخروجها قليلًا عن إطار الفتنة الذي يكون في مرحلة الشباب، وتيسير الشريعة لها في بعض الأمور خلافًا للشابة الصغيرة. ولعل هذا الانقطاع الفكري والدعوي عن هذه المرحلة، هو أحد تجليات الحداثة وصورها: الإغراق في اللحظة الراهنة، من دون اعتبار الصورة الكاملة والمراحل المتتالية في حياة المرأة المُسلمة.

ولعله يكون أيضًا لأن أغلب العوائق التي تقابلها المسلمة، تكون في هذه المرحلة شديدة الأهمية، حيث رعاية الأولاد وتنشئتهم، ورعاية الزوج ومتطلباته، وما إلىٰ ذلك.

لكنا نعود فنقول: «إن وجود أدوار تعتبر أساسية لكل من الرجل والمرأة في الحياة، لا يعني أن الإسلام لم يوجد لهما مساحة لأدوار أخرىٰ. فالأدوار التي يقوم بها الرجل والمرأة في الإسلام ليست ذات حدود ضيقة، ولكنها تتسع لتواكب الظروف التي قد تمليها الحياة. ولكن تظل المحافظة علىٰ تلك الأدوار الأساسية ضرورة غير قابلة للتفاوض، والقيام بالأدوار الأخرىٰ يكون منضبطًا وفق تعاليم ديننا الحنيف التي تضمن استقرار المجتمع وطهارته»(١) (*).

(١) «**المرأة المسلمة والعلم**»، د.ريم الطويرقي، مقال إلكتروني.

(*) أتصوّر دائمًا هذا المعنىٰ في تعبير بيجوفيتش عن الوظيفيّة الحياتيّة المادّية بين الإنسان والحيوان، فـ «الحيوانات تعيشُ في عالمٍ من الحياتيّة الكاملة، والوظيفيّة المُطلقة»، يقول: «ولا تعلم شيئًا عن المجهول، أو المُقدس، أو الأسرار، أو العبادة، أو التضحية أو الجمال والفن». وفي عالمنا المادي، ومجتمع السوق؛ يُراد للإنسان أن يقبع في تلك الوظيفيّة الحياتيّة المادّية التي يشترك فيها مع الحيوان؛ بشكلٍ عام، وأن يتجه إليها بأفكاره (الفكر المادي) إذا ما طلب لنفسه ولمن حوله =

فلا يخفىٰ علينا أن المرأة المسلمة في هذه السن، تكون أمثل ما يكون لنموذج القدوة، واتساع الخبرات العلمية والحياتيّة، والقرب النفسي من الشباب رجالًا ونساء، ومن ثمَّ إمكانية التأثير الإيجابي في نفوسهم.

وكلما استحضرت تعبير الشيخ الندوي -رحمه الله تعالىٰ- الذي عنون به كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؛ يقفز إلي ذهني سريعًا التعبير نفسه ولكن علىٰ منوالٍ آخر:

ماذا خسر المسلمون بابتعاد أكثر النساء عن مجال الاشتغال العلمي والثقافي؟!

إن الاشتغال العلمي والثقافي وما يستتبعه من تدريس وتعليم، ليس محصورًا فقط في الجهد الذهني العقلي، أو المكانة العلمية مثلًا، فحسب، بل هو كذلك له جانب مجتمعي شديد الأهمية، لما فيه من التعامل مع الطالبات والحرص علىٰ شمولية العلاقة بين المعلمة وبين الطالبات، بحيث تشمل جوانب حياتهن الاجتماعية وليس العلمية فقط، ومن ثمَّ يتحقق معنىٰ القدوة الحسنة، والفهم السليم لكثير من الأمور الاجتماعية والأعراف، التي تنضبط بالأساس من طريق معرفة أحكام الشريعة، والأفكار السائدة.

= الإلهام والفكر؛ إلا أن الرجل إذا خرق هذه المادّية واتجه إلىٰ الدين، أو المعرفة الغائيّة، والتأمل، والفن؛ في مجتمعاتنا الإسلامية، فإن ذلك لا يُثير حفيظة المجتمع تجاهه غالبًا؛ لكن المرأة دائمًا مُدانة، إن هي حاولت الخروج عن قوقعتها الماديّة المُحكمة. وربما كان هذا هو السائد أيضًا في وقتٍ ما من تاريخنا الإسلاميّ، في العصر العباسي ثم العثماني؛ لذا يرصد لنا التاريخ في هذه المراحل ظهورًا قويًّا للتصوّف بين النساء، كردة فعل علىٰ الإغراق في الماديّة في أوساط النساء بشكلٍ خاص. وأختم هنا بمقالته -بيجوفيتش- كذلك: «إن أي حل يُغلّبُ جانبًا من طبيعة الإنسان علىٰ حساب الجانب الآخر، من شأنه أن يُعوّق القوىٰ الإنسانيّة، أو يؤدّي إلىٰ الصّراع الداخلي». وهذا تحديدًا ما يتجلىٰ بقوة في أزماننا، كردة فعل للنساء علىٰ حصرهن في الجانب المادّي الحياتي الوظيفي، سواء من ناحية الصراعات الداخلية التي تتمثل في أعلىٰ صورها في الإلحاد ثم في العلمنة والنسوية، أو في أقل صورها في هدر الطاقات النسائيّة، وعدم وضعها في الحُسبان في رُقي المجتمعات الحضاريّ؛ أخلاقًا وفكرًا وعملًا.

فإن «من أبرز سمات العلوم الإسلاميّة المُستقاة من عقيدةِ التوحيد، هي اعتمادها المُتبادل، وترابطها بعضها ببعض، فليس ثمة انفصال بين علوم الطبيعة والمرئيات وعلوم الدين والفنون، ولا توجد كذلك حدود فاصلة تُعيّن نقطة البداية في هذا العلم وأين ينتهي، وهو ما يُفسّر ظهور العدد اللامحدود من العباقرة الموسوعيين في الثقافة العربيّة، علىٰ نحو لا نجد له مثيلًا في الحضارات الأخرىٰ»[١].

وبشكلٍ عام، فإن ثمة موازنةً بين الدور العلمي والدور الاجتماعي للمرأة المُشتغلة بالمجالات العلمية والثقافية، مغفولًا عنها بالكلية؛ لأن الممارسة الحياتيّة تنبُذُ مثل هذه الرؤية الواحديّة[٢]، فالمرأة في بيتها وحياتها اليومية تحتاج إلىٰ وعي عامٍ شرعي وثقافي وعلمي وتربوي، والمرأة في مجال العلم والدراسة تحتاج إلىٰ بُعْدٍ اجتماعي وتربوي مهم جدًّا، كي تعلم كيف تنتفع بعلمها هذا في الواقع العملي وكيف سينتفع به الناس. بل إن منظومة الزواج والتربية عمومًا من أعظم ما ينفع المرأة في إكسابها النشاط والبذل والتفاني، وإرادة نفع الخلق. لكن المهم أن يكون سُلم الأولويات ثابتًا، والتصورات واضحة لا لبسَ فيها.

(٢)

ثمة معضلة أخرىٰ في البحث عن جوابات أسئلتنا، ألا وهي معضلة الزواج والتعليم. فمن المُشاهد والمُقرر لدىٰ كثير منا، أن مناهج التعليم والشهادات الدراسية لم تضف شيئًا ذا بال إلىٰ جوهر روح المرأة وعقلها.

---

(١) «**رحابة الإنسانيّة والإيمان**»، د.عبد الوهاب المسيري، ط. دار الشروق، (ص/ ١٨٩).

(٢) بتعبير د.عبد الوهاب المسيري، أو بتعبير بيجوفيتش: «النموذج المُجرّد، والتجربة المُعاشة».

وفي الحقيقة، فإن تلك الحال لم تختلف كثيرًا مع الرجل؛ والحديث عن فساد المنظومة التعليمية العربية، وقصورها، لهو حديث ذو شجون.

لكن الرجل يضطر بشتىٰ الوسائل إلىٰ التحايل تارة والتعايش تارة، مع هذه المنظومة التعليميّة الفاسدة، حتىٰ يستطيع أن يمهد لنفسه طريقًا في الحياة، في ظل قيم الدولة الحديثة وتغولها، ونظمها البيروقراطية الأشبه برأس ميدوسا! في تعقيداتها وتفرعاتها وكآبة منظرها. أما الحديث عن تعليم المرأة في هذه المنظومة نفسها التي يغلب فسادها، فيشوبه كثيرٌ من المشكلات؛ إذ تنشأ الفتاة ولا همّ لأهلها غالبًا إلا تفوقها في الدراسة، حتىٰ تكون شهادتها الدراسية (سلاحًا) يحميها من غدرات الزمان.

وتتعاطىٰ مع مناهج دراسية منفصلة عن واقعها العمليّ، مخليّة من المبادئ، بل ومن رسالتها الأولىٰ في الحياة؛ «فالأمة الإسلامية تعاني من المرأة المتعلمة المخلية عن مبادئها ورسالتها بقدر ما تعاني من المرأة الجاهلة المستغرقة في الجهل، ولن يكون الحل إلا بالعلم والوعي معًا»[1].

ثم عندما تكون علىٰ مشارف العشرينات، ينتظرون الخاطب، وتجد نفسها مُطالَبة بسَيْلٍ من المسؤوليات والواجبات التي تتعارض مع مصلحتها الشخصية في الظهور والنبوغ والتفوق في الدراسة أو في العمل، وإكمال المسار التي قضت فيه علىٰ الأقل خمسة عشر عامًا من عُمُرها.

وأحسب أن هذا هو أحد الأسباب الرئيسة، التي جعلت كثيرًا من الرجال -ومن النساء كذلك- يرىٰ أن الفتاة المهتمة بالدراسة أو بالتعليم، أو حتىٰ إكمال المسير في الدراسات العُليا في مجال دراستها، هي فتاة لا تصلح للزواج المستقر؛ لأن تطلعاتها ورغباتها في العمل والتفوق الدراسي -وما يستتبع ذلك من استقلال مادي أو معنوي- يجعلها -في ظنونهم- ندًّا

(١) «**قراءة في جهاد المرأة ضد التخلف**»، مليكة لدهم، حقوق المرأة وواجباتها في الإسلام، جامعة الصحوة الإسلامية، الدورة الخامسة، نقلًا عن بحث: دور المرأة المسلمة المباشر في تنمية المجتمع: دور المرأة في مجالات التنمية، للباحث النيجيري بنتاواجو، الجامعة الإسلامية.

لزوجها، أو أقل كفاءة في بيتها وتربيتها لأولادها ممن لا تنشغل بأية مسارات أخرىٰ في حياتها.

وتنعكس تلك الصورة نفسها بتناقضاتها علىٰ كثير من النساء في تصورهن لأنفسهن؛ فإما فريق يمجّد العلم والدراسة والتفوّق، ويقلّل من دور المرأة في بيتها، وإما فريق يمجّد من دور المرأة في بيتها لكنه ينفي أهمية الدراسة والعلم والوعي عمومًا، بحسب اختلاف الشخصيات بين المميَّزة في الدراسة أو تلك التي يقل حظها من العلم لكن لها خبرة اجتماعية جيدة.

والحقيقة أن كليهما له حظُّه من الخطأ! لأن الأدوار متكاملة ومتوازنة كما أسلفنا، فالدور العلمي لا ينفصل عن الدور الاجتماعي، ولا ينعزل عنه، والاجتماعي لا غنىٰ له عن العلمي. وهذه عقيدةٌ إسلامية أصيلة، التلازم بين منظومتي العلم والعمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثواب العظيم للعالِم والمتعلّم، كلٌ بحسب مقدوره وبحسب نيته.

وإذا كان كلامنا يتعلق بالتعليم التابع لمنظمات الدولة، ومساراته، وأزماته التي لا تنتهي، فإن هذه الإشكالات قد تسربت ذهنيًا -من حيث ندري أو من حيث لا ندري- إلىٰ قضية تحصيل العلوم والثقافة عمومًا، حتىٰ في تلك المجالات شديدة الأهمية في العلوم الشرعية والإنسانية؛ بل انقلبت الصورة، فبدلًا من السعي لسد نقص المنظومة التعليمية وفسادها، بسعي تعليمي وثقافي موازٍ، حدث إقصاء أشد لهذه المجالات، نتيجةً لما يُسمىٰ بـ (اقتصاد المعرفة).

ففي مجتمع استهلاكي بامتياز، يتم التركيز علىٰ المجالات والتخصصات الدافعة لحركة الاقتصاد، التي تحقق معدلات ربحية عالية، لا سيما مع تنامي توحش الرأسمالية في عالم السوق، في حين أن كثيرًا من العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير والاعتقاد، وكثيرًا من العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وعلوم اللغة ودراساتها؛ تقبع في آخر الصف، بل

ويُنظر إليها بكثير من التهوين والتقليل من شأنها وأهميتها، اللهم إلا في الأُطُر التي تغذي الاتجاه الاقتصادي أو الربحي ومصالحه. ونستطيع أن نشبه هذا برؤية الماديين الذين يقولون بأهمية الأخلاق حتىٰ تسير عجلة الإنتاج بصورة سليمة!

والذي أريد قوله هاهنا: إنه ليس ابتعاد النساء عن مجالات الاشتغال العلمي والثقافي، هو الذي يقيهنّ شر الانشغال عن واجباتهنّ الأساسيّة، لا وليس ذاك الذي يحفظ لهنّ أوقاتهنّ، بل إن هذا الابتعاد نفسه هو معول الهدم الذي يأتي علىٰ أجيالنا ونسائنا شيئًا فشيئًا، وهو ذاك المعول نفسه الذي يحفر الطريق نحو التيه في عالمٍ مفتوحٍ سائل. وليس الحل -كذلك- في نفس الاشتغال العلمي والثقافي فقط، بل في تفاعلهما مع الواقع الاجتماعي والأدبي والتربويّ والدعويّ، بحيث تكون هناك علاقة تبادليّة بينهما، فالاشتغال له صلة بالواقع، وتأثير فيه، والواقع يؤثر في جوانب هذا الاشتغال وطرح أسئلته ليبحث فيها، ويجيب عنها. هذه هي المنظومة التي ينبغي أن نحرصَ علىٰ تكميل حلقاتِها شيئًا فشيئًا، والنهوض بنسائنا في مساراتها من دون انتقاص لأهميتها الشديدة، ولا طغيان بها علىٰ سائر صور الحياة وواجباتها.

(٣)

لم تكن هناك حاجة مُلحة في الأزمنة البعيدة[١] للاشتغال الثقافي؛ وذلك لسهولة الحياة وقلة تعقيداتها مقارنةً بأزماننا، لكن مع الانفتاح الهائل للحياة المعاصرة، وفي ذلك المجتمع الرذاذيّ المتناثر الذي يموجُ بالاضطرابات

(١) تحديدًا في المجتمعات ما قبل الصناعيّة.

الفكريّة والاجتماعية؛ صارت أهميته عظيمة، لا سيما فيما يخص دراسات المرأة المسلمة. ولماذا نخص دراسات المرأة المسلمة بالذّكر، ونؤكد علىٰ أهميتها وخطورتها؟

إن الباحثَ والمتأمل في الدراسات النسوية، وفي مختلف القضايا الفكرية المطروحة المتعلقة بالمرأة عمومًا وبالمرأة المسلمة خصوصًا، يجد اتساعًا رهيبًا في رقعة الأيديولوجيات التي تتناول هذه القضايا، مع فراغٍ وخواء في الجانب الإسلاميّ الرصين؛ وإنما قُلتُ: الرصين؛ لأن الفئة التي تطلق علىٰ نفسها (النسوية الإسلامية)، أو (التوفيقيّة)، هم في الحقيقة لم يحققوا نسوية، ولم يتحققوا بالإسلام في نسويتهم المزعومة! وإنما يُساقون زُمَرًا إلىٰ طريقٍ مُقفرٍ موحش، تملؤه العناكب والخفافيش! ألا وهو: تأويل النصوص بغير قواعد التأويل، وتوظيف النصوص في غير مواضع دلالاتها، والانطلاق من(أيديولوجيا) نسوية في متجه النص التراثي الإسلامي.

ومن جهةٍ أخرىٰ، فإن التيارات النسوية تبذل جهودًا حثيثة ومضنية في وضع أطر تأسيسيّة كاملة لمذاهبهم، كما يتم التفاعل مع تلك الأطر الأكاديميّة لتقديمها في مختلف الصور الإعلاميّة والأدبيّة والثقافيّة، بل والتنمويّة والسياسيّة كذلك.

أما في الجانب الإسلامي، فـ «يكاد يغلب علىٰ الكثير من الكتابات الإسلاميّة حول المرأة، الحالة الانفعاليّة والدفاعيّة، المنشغلة بالرد علىٰ الشبهات والإشكاليّات التي تثيرها الأقلام والكتابات غير الإسلاميّة حول المرأة بصورةٍ عامّة، وحول المرأة في الخطاب الإسلامي بصورةٍ خاصّة. وإذا كان مُهمًا الانشغال بهذا النمط من الكتابات، دفاعًا عن الموقف الإسلامي، فإن الأهم من ذلك العمل علىٰ بلورة الرؤية الإسلاميّة المعرفيّة والعمليّة لقضايا المرأة، بعيدًا عن إشكاليّات وحساسيّات الطرف الآخر»[(١)].

---

(١) «**الإسلام والمرأة .. تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة**»، زكي الميلاد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، (ص/ ٢٤).

إضافةً إلىٰ التشابه بين هذه الكتابات إلىٰ حدٍ بعيد، مع فروق يسيرة؛ فأنت لا تكاد تفرق بين كتابٍ وآخر، وبين المقالةِ وأختها؛ فالكلام نفسه مكرور حدّ السآمة، وسطحية شديدة في التناول؛ والشيء نفسه، ذلك الكلام المنثور في أرجاء مواقع التواصل هنا أو هناك، بما يطبع في ذهن القارئ أن أي مدافعة عن حقوق المرأة هي نسوية أو فيمينيزم، والتهكم الواضح في الوصف بـ (الفيمينزم) يظهر محدودية تصور من يورد هذه الكلمة في كل شاردة وواردة تخص النساء وحقوقهن؛ لأن المذاهب النسوية هي مذاهب علمانية الغاية والوسيلة، وكثيرٌ من طرقها الملتوية وأطروحاتها التي تنطوي علىٰ العداء الصريح للدين، هي طريق مختصر للإلحاد -وملف علاقة النسوية بالإلحاد من الملفات المهمة التي ينبغي أن نتأملها طويلًا.

وإن من المثير للدهشة حقًا، أن المرأة المسلمة نفسها لم تشارك في أكثر الكتابات المتعلقة بقضاياها العلميّة والثقافيّة، بل إن أكثر الكتابات من الرجال، ومن المستشرقين والمستشرقات.

«وتظهر مثل هذه المفارقة حين يستعرض الأستاذ منير شفيق في كتابه التوثيقي (الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات) آراء الإسلاميين المعاصرين عن المرأة، ويشير إلىٰ واحدٍ وعشرين رأيًا للرجال، ورأيين فقط للنساء»[1].

وعن الكتابات الاستشراقية حول المرأة، تقول د.نعمت زرنجي: «كنتُ أتساءل: كيف لنا أن نتوقع من المستشرقين أو غيرهم، أن يكونوا واعين لمفهوم الإسلام للمرأة ودورها، وكيف لهؤلاء أن يتفهّموا الحضارة الإسلاميّة العربيّة بصورتها المتكاملة الكليّة، وهم يرون أن نصف هذه المجتمعات صامت، أو فُرض عليه الصمت؟!»[2].

---

(١) السابق، (ص/ ٢٥).

(٢) «دعونا نتكلم: مفكرات أمريكيات يفتحن نوافذ الإيمان علىٰ عالم مُتغير»، جيزيلا ويب وأُخريات، ط. دار الفكر، (ص/ ١٠).

«لعل أبرز حقيقة يمكن أن نقررها في مجال الحديث عن رؤية الفكر الإسلامي المعاصر لمسألة المرأة، هي أن هذه الرؤية لن تتغير أو تتجدد بالصورة التي تقبل بها المرأة وتنسجم معها، ما لم تساهم هي نفسها في تغيير وتجديد هذه الرؤية، علىٰ الصعيدين المعرفي والعملي»[(١)].

«ومن الممكن القول إن الفكر الإسلامي قد تأثّر ضعفًا في تكوين رؤيته عن المرأة، بسبب الضعف الذي كانت عليه في التعبير عن رؤيتها الفكريّة والثقافيّة»[(٢)].

لكل هذا -وغيره-، نؤكد أهمية الاشتغال الثقافي للمرأة المسلمة، وأهمية وجود مساحة إسلامية رصينة من الدراسات حول المرأة في الواقع المعاصر.

ولماذا نكرر ونؤكد أهمية تحصيل العلوم الشرعية، بصورةٍ أساسيّة، مع توسيع دائرة الاطلاع والاشتغال الفكري والثقافي؟

لأن العلم الشرعي أساسٌ وأصلٌ في تجنب الزيغ في تناول قضايا المرأة -وغيرها من قضايا الفكر والثقافة-، وليس من جهة علم الفقه وحسب، حيث أحكام الشريعة المتعلقة بالنساء ومناطاتها، ولكن في أصول الفقه، وفي الاعتقاد، حيث معرفة كيف يتم التعامل مع النصوص بطريقة صحيحة، وكيف نتجنب الاجتزاء الشائه الذي لم يخلُ منه أحد في الساحات الثقافية -إلا من رحم ربي-، والاستفادة من مجمل النصوص الواردة في الباب الواحد، وعدم معارضة الشريعة بعضها ببعض، بأخذ بعض النصوص والاحتجاج بها علىٰ نصوصٍ أخرىٰ، ومعرفة مدلولات النصوص، ولوزام فهمها علىٰ النحو الصحيح.

---

(١) «**الإسلام والمرأة . . تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة**»، زكي الميلاد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، (ص/ ١٧٩).

(٢) السابق، (ص/ ١٨١).

وفي التفسير وفي الحديث، وأصولهما، وعدم الخلط -غير المقبول تمامًا- الذي نسمعه ونراه في كثير من ساحاتنا الفكرية والثقافية من سوء الاستدلال؛ ومعرفة درجات الحديث، لمشكلة الاستدلال بالأحاديث المردودة، وهي مشكلة منتشرة سواء في الجانب الإسلامي أو في الأيديولوجيات المناهضة له. وما إلىٰ ذلك من أهمية عُظمىٰ لترسيخ أسس العلوم الشرعية في قلوبنا وعقولنا، لتحصينها وتقويتها وتعزيز إيمانها وعقيدتها، أمام هذا الزحف الفكريّ الرهيب، الذي أتىٰ علىٰ أخضر العقول والقلوب، ويابسها.

«إن حال كثير من البيوت اليوم غير حالها بالأمس، فهي اليوم بيوت مُختَرَقة، أشبه ما تكون بنافذة مُطلّة علىٰ العالم، وقد يكون القارّ فيها أكثر اتصالًا بالعالم ممن هو خارجها؛ فالتقنيات وصلت العالم بعضه ببعض، وجعلته كقرية صغيرة تسرع فيها العدوىٰ، ويسهل بين بيوتها التأثير»[١].

«إن هذا الواقع الكوني الجديد قد أصبح يحتم علىٰ مجتمعاتنا الثالثية ضرورة تمنيع الذات وتحصينها وتقويتها»[٢].

«فعندما تكون المرأة واعية بدورها، متسلحة بقدر ملائم من المعرفة والثقافة والقدرات والمهارات الفنية، وغيرها؛ يقل خطر وسائل الإعلام في التأثير سلبًا علىٰ المحيط الاجتماعي الذي تتفاعل في داخله هذه المرأة، وتعيش فيه عدد من الصراعات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة»[٣].

«فالجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة عملة نادرة، وأهل هذا الجمع هم المؤهلون للتأثير العميق في هذا العصر بعد توفيق الله، وهم

---

(١) مقال: «**القرار في البيوت الخربة**»، د. سامي بن عبد العزيز الماجد، مؤسسة الإسلام اليوم.

(٢) «**المسألة النسائية وتحديات التعليم والتنمية البشرية**»، (حوار مع الباحث السوسيولوجي: مصطفىٰ محسن)، حوار إلكتروني.

(٣) «**المرأة ودورها في التنمية الاجتماعية**»، عليان القلقيلي، (ص/ ٤)، نقلًا عن الباحث النيجيري بانتاواجو.

المؤهلون لتحقيق مراد الله بتحكيم الشريعة في مسائل المعرفة والعلوم المُعاصرة، وتحرير مسائل العلوم الحديثة في ضوء الوحي»[١].

وأختمُ -نهايةً- بهذه الطرفة التي أتداولها مع صديقاتي، حينما نجد أصواتًا نسائية مناهضة لبذل الجهد في التعلم، والمشاركة في قضايا الأمة بما تستطيع وتُحسن؛ وهي نصيحة لكل امرأة: ألا تكون (حماة وجوديّة) في سبيل العلم والثقافة.

فإذا ما افترضنا وجود قهرٍ أو عداء حقيقي ضد المرأة، فإن الصورة المتبادرة إلىٰ الذهن غالبًا أن يكون الرجل هو الطرف المقابل، الذي أسس هذا العداء أو القهر.

لكن هذا التصور به قدر كبير من الغلط، وسوء الفهم؛ إذ إن طائفة كبيرة من النساء أنفسهن يتبنين قيم هذا العداء وفرضياته.

وقياسًا علىٰ أدبيات المعضلة المصرية الشهيرة، بين الحماة وزوجة الابن، فيمكننا أن نقول إن لكل امرأة من النساء حماة (فكرية) أو (وجودية) ليست من النسب، تستطيع أن تناهضها تمامًا فيما تدعو إليه أو تقوم به، وفي تصوراتها وقيمها، علىٰ الرغم من تشابه أدوارهما وآلامهما في الحياة إلىٰ حدٍ بعيد، في الغالب.

لذا فنصيحتي الأخوية لسائر النساء المسلمات:

أرجوكِ .. لا تكوني (حماة وجودية) في هذا السياق!

هذا، وإني لأرجو الله تعالىٰ أن يتقبل ذلك وأن ينفع به، وأن يغفر لي خطئي وتقصيري فيه.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم.

والحمدُ لله رب العالمين.

---

(١) «**مسلكيات**»، إبراهيم السكران، ط. مركز تفكر للبحوث والدراسات، (ص/٤٦-٤٨) باختصار.